

موقف من يونس بن حبيب

للككتور محمود حسني محمود

(الجامعة الأردنية)

- ١ -

هو (١) أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي البصري . يكاد أغلب الذين ترجموا له أن يتفقوا على أنه واحد من الموالى العرب ، ولكنهم حاروا في من كان مولاه ، فقليل (٢) أنهم بنو ضبة ، وقيل (٣) بنو ليث بن بكر ، وقيل (٤) بلال بن هرمي من بني ضبيعة بن بجالة . أما صاحب « معجم الأدباء » فقد رأى أنه ضبي نسبة صريحا ، ولكنه عاد وروى أنه مولى بني ليث ؛ قال (٥) : « أبو عبد الرحمن الضبي وقيل الليثي بالولاء » . وكان نسب يونس يحتر أبى الحسن الخزاز الذي لم يستطع أن يتحقق من الأمر فكان يقول (٦) : « لا أدري هو مولى أم لا » . وفي جميع الأحوال فإن يونس يبقى عربي الأصل . ولم يذهب أحد إلى أنه غير ذلك سوى صاحب «مفاخر»

١ - طبقات المفسرين : ج ٢ / ٢٨٥ . بغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ . انباه الرواة : ج ٤ /

٦٨ .

٢ - وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٤ . الفهرست : ص ٧٩ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

٣ - وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٤ . معجم الادباء ج ٢ / ٦٤ . الفهرست : ص ٧٩ .

٤ - وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ .

٥ - ج ٢٠ / ٦٤ .

٦ - الفهرست : ص ٧٩ .

العجم « الذي ادعى (٧) أنه أعجمي الأصل ، مفتخرا بذلك ، توهما (٨) منه أنه من أهل الجبل، بينما هو في الحقيقة من مواليد جبل (٩) : القرية الواقعة (١٠) بين النعمانية وواسط ، ولعل لفظ « جبل » هو الذي أوهمه أنه من أهل الجبل .

وقد قدر الله ليونس أن يعيش عمرا مديدا ، اختلفت الروايات (١١) في تقديره ، وتراوح فيها بين ٧٨ سنة الى ١٠٢ من السنين ، ولكن الأغلب أنه عاش ٨٨ عاما ، او قريبا منها ، وأنه توفي سنة ١٨٢ هـ .

ويبدو أنه فرغ حياته تماما من أجل العلم ، ولم تشغله شواغل الدنيا « فلم (١٢) يُتَسَّرَ ، ولم يفزوج » ، و « (١٣) لم تكن له همة الا طلب العلم ، ومحادثة الرجال » ولعلَّ عدم انشغاله بشيء غير العلم يسَّر عليه جهدا في امتلاك حصيلته العلمية التي وصل اليها ، وامكنه من الحفاظ عليها، حتى قبل فيه قولَ ظريف : « (١٤) مثل يونس كمثل كوز ضيق الراس ، لا يدخله

٧ - الفهرست : ص ٧٩ .

٨ - تاريخ الادب العربي (بروكلمان) : ج ٢ / ١٣٠ .

٩ - وفيات الاعيان ج ٧ / ٢٤٤ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

١٠ - معجم البلدان : ج ٢ / ١٠٢ . قال ياقوت : « بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي كانت مدينة واما الان فاني رايتها مرارا وهي قرية كبيرة ، قال المجتري : لئن اوحشتي جبل وخصاصها لما انستني واسط وقصورها » .

١١ - ولعل اصحها تلك التي وردت على لسان الجاحظ في حديثه للمبرد، وتفيد بان يونس توفي سنة ١٨٢ هـ وهو ابن ثمان وثمانين (مراتب النحويين ص ٢١ وانظر الحيوان ج ٥ / ٥٩١) . وهذه الرواية تتطابق مع ما ورد على لسان اسحق بن ابراهيم الموصللي في الفهرست ص ٧٩ .

اما لي : البداية والنهاية : ج ١ / ١٨٤ . فقد ورد انه توفي عن ٧٨ سنة . وفي طبقات المفسرين ج ٢ / ٢٨٦ وبغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ توفي عن تسعين . وفي احدى روايات الانباء : ج ٤ / ٧١ انه جاوز المائة .

١٢ - انباه الرواة : ج ٤ / ٧١ . طبقات المفسرين : ج ٢ / ٢٨٦ . بغية الوعاة : ج ٢ / ٣٦٥ .

١٣ - الفهرست : ص ٧٩ . وفيات الاعيان : ج ٧ / ٢٤٥ . انباه الرواة : ج ٤ / ٧١ .

١٤ - طبقات النحويين واللغويين : ص ٥١ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

شيء إلا بعسر ، فاذا دخله لم يخرج منه « اي لا ينسى . وبقي يونس يفيد من علمه الى ان (١٥) « تفرغ من الكبر » ، إذ وصل عمراً لا احد يرجو ان يصل اليه ، فقد « (١٦) دخل المسجد يوماً وهو يهادي بين اثنين من الكبر ، فقال له رجل كان يتهمه على مودته : بلغت ما ارى يا ابا عبد الرحمن ، قال : هو الذي ترى ، فلا بلِّغته . » .

وكان يونس ذا نظرة تأملية ، وصاحب رأي في بعض الجوانب الحياتية ، فكان يقول : « (١٧) ثلاثة والله اشتهي ان أمكن من مناظرتهم يوم القيامة : آدم ، عليه السلام ، فأقول له : قد مكّنك الله من الجنة وحرّم عليك شجرة ، فقصدت لها حتى القيتنا في هذا المكروه ؟ . ويوسف ، عليه السلام ، فأقول له : كنت بمصر ، وابوك عليه السلام بكنعان ، بينك وبينه عشر مراحل ، يبكي عليك ، لم لم ترسل اليه : اني في عافية ، وترى مما كان فيه من الحزن ؟

وطلحة والزبير أقول لهما : علي بن ابي طالب ، عليه السلام ، بايعتماه بالمدينة ، وخطبتماه بالعراق . لم ؟ اي شيء احدث ؟ »

وللشباب والاحباء عنده مكانة غالية حين يقول (١٨) :

شيطان لو بكت الدماء عليهما عيساي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ، شرح الشباب وفرقة الاحباب

وللعلم عنده مكانة لا تدانيها مكانة ، فكان يقول : « (١٩) إن علمك

١٥ - الفهرست : ص ٧٩ . انباه الرواة : ج ٤ / ٧١ .

١٦ - مراتب النحويين : ص ٢١ . انباه الرواة : ج ٤ / ٦٨ .

١٧ - اخبار النحويين البصريين : ص ٢٩ .

١٨ - ثخرات الذهب : ج ١ / ٣٠١ .

١٩ - الحيوان : ج ١ / ٦١ .

من روحك ، ومالك من بدنك ، فضعه منك بمكان الروح ، وضع مالك بمكان البدن » .

تثقف يونس ثقافة واسعة تمثل ثقافة عصره ؛ وكان متجليا في اكثر من علم واحد : فهو عالم بالانساب ، يضرب به المثل في الدراية بهذا العلم والتمكّن منه • قال الجاحظ في حديثه عن الحمام : « (٢٠) ووصف الهذيل المازني مثنى بن زهير وحفظه لانساب الحمام ، فقال : « والله لهو انسب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دعامة للناس ، بل هو انسب من ابي بكر الصديق رضي الله عنه ! لقد دخلت على رجل اعرف بالامهات المنجيات من سُحيم بن حفص ، واعرف بما دخلها من الهجنة والإقراف من يونس بن حبيب » .

وهو قصاص من اولئك الذين كان الناس يتحلّقون حولهم في المساجد ويستمعون الى ما يروونه من احاديث واخبار • ويبدو أن الموضوع الذي كان يدور حوله القصاص — كما يبدو من خلال ذكر (٢١) الجاحظ لهم — هو تفسير آيات القرآن الكريم ، فبرع يونس بين المفسرين ، (٢٢) وترجم له في طبقاتهم ، ولا سيما وقد ألف كتابا سماه « (٢٣) معاني القرآن » • ولعل يونس في تأليفه هذا الكتاب هو الذي اوحى الى تلامذته : ابي

٢٠ — الحيوان : ج ٢ / ٢١٠ .

٢١ — انظر البيان والتبيين : ج ١ / ١٩٢ — ١٩٤ .

٢٢ — انظر : طبقات المفسرين : ج ٢ / ٢٨٥ — ٢٨٦ .

٢٣ — انظر : الفهرست : ص ٧٩ . وقد خلط صاحب معجم الادباء (ج ٢٠ / ٦٧) بين معاني

القرآن و « النوادر » فذكره باسم « معاني القرآن الكبير » « معاني القرآن الصغير »

مع ان كتاب المعاني كتاب واحد ، اما النوادر فالف فيها كتابين : الكبير والصغير كما

سرد فيما بعد .

عبيدة (٢٤) والكسائي (٢٥) والأخفش (٢٦) والفراء (٢٧) ان يسلكوا مسلكه ويؤلفوا كتباً في الموضوع نفسه تحمل اسم الكتاب الذي ألفه . وله آراء (٢٨) تفسيرية تناقلتها الكتب بعده .

وهو ناقد أدبي مؤهل بكل متطلبات النقد ، كان «٢٩» عالماً بالشعر ، نافذ البصر في تمييز جيده من رديئه ، عارفاً بطبقات شعراء العرب ، حافظاً لانسابهم « ، مرجعاً لمن كان الأدب يشكل جزءاً من تفكيرهم وهمومهم ؛ دم (٣٠) عليه جعفر بن العباس من عند الخليفة المهدي وقال له : أنا وأمرؤمنين اختلفنا في هذا البيت :

والشيبُ ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجاتبيسه نهار
فما الليل والنهار ؟ فقال يونس : الليل ، الليل الذي تعرف
والنهار . النهار الذي تعرف ، فقال جعفر : زعم المهدي أن الليل فرخ
المكروان ، والنهار فرخ الحبارى . فقال أبو عبيدة في البيت ما قاله يونس .
والذي قاله المهدي معروف في الغريب من اللغة .

وكان الشعراء يذهبون اليه يستأمنون برأيه ، قبل أن يذيعوا أشعارهم للناس ؛ حتى أن بعضهم كان يتخذ من رأيه القول الفصل ، فيما أن يظهر شعره وأما أن يلتقيه ولا يلتفت اليه • قدم (٣١) عليه مروان بن

٢٤ - انظر انباء الرواة ج ٣ / ٢٥٦ .

٢٥ - انظر نزهة الالباء ص ٦٠ .

٢٦ - انظر انباء الرواة ج ٢ / ٤٢ .

٢٧ - انظر : نزهة الالباء ص ٨١ .

٢٨ - انظر : الحيوان ج ٥ / ٢٤٠ ، ج ٥ / ٢٩٥ ، وطبقات فحول الشعراء ص ٥٤ (مطبعة المدني - القاهرة - ١٩٧٤) .

٢٩ - معجم الادباء ٢٠ / ٦٤ .

- وفيات الاعيان ٧ / ٢٤٧ .

٣١ - الموشح ص ٥٠ معجم الادباء ج ٢٠ / ٦٦ .

أبي حفصة ، وقال له : لقد قلت شعراً أعرضه عليك ، فإن كان جيداً أظهرته ،
وإن كان رديئاً سترته ، وأنشده :

طرقتك زائرة فحيتي خيالها

قال : فقال له : يا هذا ، اذهب فأظهر هذا الشعر ، فأنت والله
فيه أشعر من الأعشى ، يريد في قوله (٣٢) :

رحلت سمية غدوة أجمالها

فقال له مروان : قد سؤتني وسررتني ، فأما الذي سررتني بسـه
فلإرتضائك الشعر ، وأما الذي سؤتني به فلتقديمك إياي على الأعشى ،
قال : نعم ، إن الأعشى قال :

فرمى غفلة عينه عن شاته فاصبت حبة قلبها وطحالها .

والطحال لا يدخل في شيء إلا أفسده ، وأنت لم تقل ذلك .

وكان يستطيع أن يميز رواية الشعر صدقتها من كذبها ؛ فقد روي (٣٣)

لأبي عمرو بن العلاء — بحضور يونس وأبي عبيدة — أن الوليد بن عبد الملك
لام العجاج لقوله شعراً في عمر بن عبيد الله بن معمر أفضل من ذلك الذي
قاله فيه ، فقال يونس لأبي عبيدة بعد سماع الرواية : أتصدق بهذا ؟ ما
كان من هذا شيء قط ، ولا كان الوليد يحسنه ؛ قال عمر بن شبة : ولا
أحسب يونس إلا قد صدق ؛ كان الوليد لحانا ، وكان عبد الملك يعتمر من
ذلك ، ويقول : « شغلنا حب الوليد عن تأديبه ، لكن هذا سليمان فاسألوه
عما شئتم » .

وكان الشعراء يحفلون بقوله وبينون عليه شعراً ، فقد (٣٤) بنى

٢٢ — ديوان الأعشى ص ٢٧ قصيدة رقم ٢ .

٢٣ — الموشح ص ١٩٦ .

٢٤ — صفيات الأعيان ج ٧ / ٢٤٦ .

منصور النمري على قول يونس : « ما بكت العرب على شيء في أشعارها
كبكائها على الشباب ، وما بلغت كنهه » ؛ فقال من جملة قصيدة يمدح
بها هارون الرشيد :

ما كنت أوفي شبابي كنه غُرتَه حتى انقضى فاذا الدنيا له تبسّم
وليونس قول ذائع يدل على دقة حكمه ومعرفته بطبيعة الشعر ، وما
يتحكم في جودته ؛ فقد سأله ابن سلام عن أشعر الناس ، فقال : « (٣٤) لا
أومىء الى رجل بعينه ولكني أقول : امرؤ القيس اذا ركب ، والنابعة اذا
رهب ، وزهر اذا رغب ، والاعشى اذا طرب » . وكان يقول عن الشعر :
« (٣٥) انه كالسَّراء والشجاعة والجمال ، لا ينتهي فيه الى غاية » .

وكان للشعراء عنده مكانة عالية ، وعلاقة وثيقة ؛ ولعل أمتن هذه
العلاقات تلك التي كانت بينه وبين العجاج ورؤبة ، حتى انهما كانا عنده
« (٣٦) اشعر اهل القصيد » . وقد (٣٧) « اختصّ بالرواية عن رؤبة
وتعصب له » ؛ وكان يهب للدفاع عنه اذا ما حاول احد ان ينال منه ؛
فهذا (٣٨) شُبَيْل بن عذرة يدخل على ابي عمرو بن العلاء — يونس حاضر
— فيبدي استغرابه من ان رؤبة لا يعرف اشتقاق اسمه ، فيثب يونس ،
ثم يجلس بين يدي شبيل ويقول له : « لك تظن ان معد بن عدنان كان أفصح
من رؤبة ؟ فانا غلام رؤبة . فما الرُّوبة والرُّوبة والرُّوبة والرُّوبة ؟

٣٤ — معجم الادباء ج ٢٠ / ٦٥ ، خزانة الأديب ج ١ / ١٧٥ .

٣٥ — طبقات فحول الشعراء ص ٦٦ (مطبعة المدني — القاهرة ١٩٧٤) .

٣٦ — خزانة الأديب ج ١ / ٩٠ .

٣٧ — الرواية والاستشهاد باللفظ ص ١١ .

٣٨ — مراتب النحويين ص ٢٢ . خزانة الادب ج ١ / ٩٠ .

كان شبيل بن عذرة راوية نسابا عالما بالفريب ، وكان شاعرا ، تشبّع سبعمين سنة ثم

صار بعد ذلك خارجيا ويكنى ابا عمرو ، مات بالبصرة . انظر مراتب النحويين ص ٢٢ .

(الخامسة مهموزة فقط) ، فإذا بشبيل يغضب ويقوم ، وإذا بأبي عمرو ينكر على يونس تصرفه مع رجل شريف قصد مجلسه ؛ فيعتذر يونس قائلا : ما نمالكت اذ ذكر رؤبة أن قلت ما قلت .

غير أن شهرة يونس تأتي من علمه باللغة والنحو، إذ (٣٩) « كان اغلب عليه » يعرف به فيقال (٤٠) « يونس النحوي » تمييزاً له عن غيره ممن عرفوا بهذا الاسم • وقد سمع (٤١) اللغة عن العرب، شأنه شأن أوائل النحاة الذين كانوا يستقون المادة النحوية من أفواه الأعراب في البادية ؛ وألف (٤٢) في اللغة كتاب « اللغات » و « النوادر الكبير » و « النسوادر الصغير » و « الأمثال » .

أما النحو فأخذه عن مجموعة أولهم (٤٣) حماد ابن سلمة ، مع أنه كان اسن (٤٤) منه ، وكان يونس يفضلته (٤٥) ؛ ولكن أكثرهم تأثيراً فيه أبا عمرو بن العلاء الذي يبدو أنه كان ملازماً إياه ، يكتب له حتى عدّ من كتّابه (٤٦) . واثراً أبي عمرو في علم يونس ظاهر في ميدان الشعر ، والرواية ، والنقد ، واللغة والنحو ؛ وكان يونس يجلّ استاذه ويحترم رأيه قائلاً : « (٤٧) لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد ، كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد إلا وانت آخذ من قوله وتارك » .

٣٩ - مراتب النحويين ص ٢١ .

٤٠ - انظر : وفيات الأعيان ج ٧/٢٤٤ ، خزائن الأدب ج ١/٩٠ . شذرات الذهب ج ١/٣٠١ .

٤١ - أخبار النحويين ص ٢٧ .

٤٢ - انظر : الفهرست ص ٧٩ .

٤٣ - طبقات النحويين واللغويين ص ٥١ .

٤٤ - نزهة الألباء : ص ٤٢ .

٤٥ - المصدر نفسه ص ٤٢ .

٤٦ - أخبار النحويين البصريين ص ٢٧ .

٤٧ - طبقات فحول الشعراء ص ١٦ (المنى - القاهرة ١٩٧٤ م) وانظر : نزهة الألباء ص ٣١ .

٣١

وقد شاهد يونس مرحلة متطورة في ميدان النحو ، توضحت فيها أسس النحو ، وثبتت فيها بعد في كتاب سيبويه • وتعد هذه المرحلة قفزة واسعة اذا ما قيست بتلك التي شهدتها ابن ابي اسحق • سئل (٤٨) يونس عن ابن ابي اسحق وعلمه فقال : هو والبحر سواء ؛ اي هو الغاية . قال : غاين علمه من علم الناس اليوم ، لو لم يكن في الناس اليوم احد لا يعلم الا علمه يومئذ لضحك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظره لكان اعلم الناس .

وقد أسهم يونس في تطور النحو مساهمة فعالة ، وكان له شخصيته الواضحة واثره البين حتى قيل : « (٤٩) له قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها » . وقد خصص معظم حياته للتدريس ، فكان له بالبصرة حلقة (٥٠) يتتابها طلاب العلم واهل الادب ، وفصحاء الاعراب ، ووفود البادية ؛ ودرس عليه علماء مشاهير سنوات طويلة • فاختلف (٥١) اليه ابو عبيدة اربعين سنة ، وابو زيد عشر سنين ، وخلف الأحمر عشرين سنة ، وأخذ عنه قطرب ، (٥٢) ومحمد (٥٣) بن سلام الجمحي ، والكسائي ، والفراء .

ويكفيه ان سيبويه أخذ عنه فأكثر (٥٤) ، ونقل عنه نقولا صدق فيها

٤٨ — طبقات النحويين واللغويين ص ٣١ .

٤٩ — اخبار النحويين البصريين ص ٢٧ وانظر انباه الرواة : ٧٠/٤ .

٥٠ — انظر : الفهرست ص ٧٩ ، وانباه الرواة : ج ٧٠/٤ .

٥١ — وفيات الاعيان : ج ٢٤٥/٧ . معجم الابناء : ج ٦٥/٢٠ . انباه الرواة : ج ٧١/٤ . شذرات الذهب : ج ٢٠١/١ .

٥٢ — انظر : مراتب النحويين ص ٦٧ .

٥٣ — انظر : مراتب النحويين ص ٦٧ .

٥٤ — اخبار النحويين البصريين : ص ٢٧ . انباه الرواة : ج ٧٠ / ٤ ، طبقات المنسرين ج ٢٨٦/٢ .

جميعا ، وشهد يونس على صدقها شهادة رفعت من ذكر سيبويه وكتابه ،
فقد (٥٥) قال حين ذكر سيبويه عنده : لظن هذا الغلام يكذب على الخليل :
فتيل له : قد روى عنك أشياء كثيرة ، فانظر فيها ، فنظر فيها ، فقال :
صدق في جميع ما قال ، هو قولي .

وقد ذكر سيبويه يونس وروى عنه في نحو ٢٠٠ موضع (٥٦) من
مواضع الكتاب، بحيث كان يتكرر (٥٧) اسمه في الصفحة الواحدة احيانا اكثر
من مرة واحدة .

وقد روى يونس في الكتاب لغة كثيرة عن العرب ، وكان مفتاح رواياته
عنهم يختلف من رواية الى أخرى ، فكان يفتتح روايته بـ (٥٨) « أن قوما من
العرب ... » ، (٥٩) « أن ناسا يقولون ... » ، (٦٠) « أن ناسا من
العرب ... » ، (٦١) « أن بعض العرب الموثوق بهم ... » ، (٦٢) « أن بعض
العرب ... » ، (٦٣) « أن قوما ... » ، (٦٤) « أن العرب
تقول ... » ، (٦٥) « أنه سمع اعرابيا ... » ، (٦٦) « أنه سمع

!

٥٥ - اخبار النحويين البصريين : ص ٣٧ .

٥٦ - انظر : سيبويه امام النحاة : ص ٩٠ .

٥٧ - انظر : كتاب سيبويه ج ١ / ٤٢٨ ذكر اربع مرات ، وج ٢ / ٤١٠ ، ٤١١ ، وانظر :
ج ٢ / ١٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢٤٧ ، ٣٦١ ، ٤٤٢ ، ٦٢٢ .

٥٨ - انظر : الكتاب ج ١ / ٢٨٩ .

٥٩ - الكتاب ج ١ / ٤١٦ ، ج ٢ / ٤١٠ .

٦٠ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٧ ، ١١٢ ، ج ٣ / ٢٤٤ .

٦١ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٣٧ .

٦٢ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢١٣ .

٦٣ - الكتاب ج ٢ / ١١٩ .

٦٤ - الكتاب ج ٢ / ١٤٢ ، ج ٣ / ٤٢٥ .

٦٥ - الكتاب ج ٢ / ٤١١ .

٦٦ - الكتاب ج ٢ / ١٣٥ .

العرب . . . » (٦٧) « أن من العرب من يقول . . . » .

وقد روى عن رؤبة (٦٨) من الشعراء ، والفـرزـدق (٦٩) ،
وجـرير (٧٠) ، والأسود (٧١) بن يعفر . وروى عن أبي عمرو بن
العلاء، وكان طريق سيبويه إليه ، وروى عن ابن (٧٣) أبي اسحق .
وتأتي شخصيته النحوية من خلال الكتاب في الدرجة الثانية (٧٤) بعد
شخصية الخليل ، وكثيرا ما كان يقرن اسماهما في رواية أو رأي . ومما
يلفت النظر في رواية سيبويه عنهما . حين ذكرهما معا ، انه كان يترحم
عليهما اذا سبق ذكر يونس ذكر الخليل . اما اذا سبق ذكر الخليل يونس
ترحم على الخليل وحده . ثم اتبع الترحم عليه ذكر يونس، فهو يقول في
المريض الأول مثلا : (٧٥) « وزعم يونس والخليل، رحمهما الله، أن الدرهم
ليست نكرة » ، (٧٦) « ولم يجز يونس والخليل — رحمهما الله — كما غلبانا
لك » ، (٧٧) « هذا قول يونس والخليل رحمهما الله » . وفي الثاني
يقول مثلا : (٧٨) « واذا لم تلحق الالف قلت، وازيد، إذا لم تضيف ، ووازيد،

٦٧ — الكتاب ج ١ / ٢٦٢ ، ج ٢ / ٦٥ .

٦٨ — انظر الكتاب : ج ١ / ٥١ ، ج ٢ / ١٥٢ ، ج ٣ / ٣٠٤ ، ٥٦٥ .

٦٩ — انظر الكتاب ج ٢ / ٧٢ .

٧٠ — انظر الكتاب : ج ١ / ٢٧٨ .

٧١ — انظر الكتاب : ج ٣ / ١٣٥ .

٧٢ — انظر الكتاب : ج ١ / ٢٨٧ ، ج ٢ / ١١٣ ، ١٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣١٩ ، ج ٣ / ١٠١ ، ٢٤٢ ،

٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٤٥٧ ، ٥٦٦ .

٧٣ — انظر الكتاب : ج ٣ / ٢٤٢ .

٧٤ — كتاب سيبويه وشروحه ص ٣١ .

٧٥ — الكتاب : ج ١ / ٤٢٨ .

٧٦ — الكتاب : ج ٢ / ١٥٩ .

٧٧ — الكتاب : ج ٢ / ٣٢٨ .

٧٨ — الكتاب : ج ٢ / ٢٢١ .

إذا أضفت ، وإن شئت قلت وأزيدي، واللاحق وغير اللاحق عربي فيما زعم الخليل رحمه الله ويونس . وفي باب النذبة (٧٩) « وذلك قولك؛ وأرجلاه، ويا رجلاه؛ وزعم الخليل، رحمه الله، ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال » . ويقول: (٨٠) « زعم الخليل — رحمه الله — ويونس جميعا أنه يجوز ما أتاني غير زيد وعمر » . وفي اعراب الضمير بعد لولا : (٨١) « وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس » . ولعل ما سلكه سيبويه إزاء الخليل ويونس يذكرني بالاعرابي الذي صلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دعا الله قائلا : (٨٢) « اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا » فدهش النبي وقال له : « لقد ضيقت وأسعا » .

ومفاتيح رواية سيبويه عن يونس كثيرة منها : (٨٣) « حدثنا يونس . . . » ، (٨٤) « أخبرنا يونس . . . » ، (٨٦) « أنشدنا يونس . . . » وفي أغنب الروايات : (٨٧) « زعم يونس . . . » ، (٨٨) « وإما يونس فيقول . . . » ، (٨٩) « وهذا قول يونس . . . » ونقل سيبويه عنه أبوابا كاملة في النحو والصرف ، إما عنه (٩٠) وحده ، وإما عنه وعن الخليل (٩١)

-
- ٧٩ — الكتاب : ج ٢ / ٢٢٧ .
 ٨٠ — الكتاب : ج ٢ / ٢٤٤ .
 ٨١ — الكتاب : ج ٢ / ٢٧٣ .
 ٨٢ — بطل الإبطال ص ٦١ .
 ٨٣ — انظر : الكتاب : ج ١ / ١٥٥ ، ٤٠٩ — ج ٢ / ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٤١٠ — ج ٢ / ٢٣٧ .
 ٨٤ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٧٦ — ج ٢ / ٢٦٧ .
 ٨٤ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٤٥٥ .
 ٨٦ — انظر : الكتاب : ج ١ / ١٢٠ ، ٢٧٨ .
 ٨٧ — انظر : الكتاب : ج ١ / ٢٨٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ج ٢ / ٧٧ ، ٤١١ ، ١٩٩ ، ج ٢ / ١٣٥ ، ٤٢٥ ، ٢٤٩ .
 ٨٨ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٧٦ .
 ٨٩ — انظر : الكتاب : ج ١ / ٤٣٣ .
 ٩٠ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٤١٧ — ٤١٨ ، ج ٢ / ٤٢٣ — ٤٢٤ .
 ٩١ — انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢١٣ — ٢١٤ ، ٢٢٨ .

جميعا .

ويعتز سيبويه في كتابه براي يونس ويعتدّ به ، ويثق ، فهو يعود اليه ويساله كلما اشكل عليه ، يقول في باب ما ينتصب على التعظيم او المدح : « (٩٢) وسمعنا بعض العرب يقول : (الحمد لله ربّ العالمين) نسألت عنها يونس فزعم أنها عربية » ، ويقول في باب اختلاف العرب في الاسم المعروف الغالب اذا استفهت عنه بمن : « (٩٣) وسألت يونس عن : رأيت زيدَ بنَ عمرو ، فقال : أقول : من زيدَ بنَ عمرو ، لانه بمنزلة اسم واحد ؛ وهكذا ينبغي اذا كنت تقول : يا زيدَ بنَ عمرو ، وهذا زيدُ بنُ عمرو ، فتستط الثنوين » . ومواطن (٩٤) أسئلته له كثيرة .

وكان يتخذ من رواية يونس تصديقا لرواية نحوي آخر ؛ فهو يقول : « (٩٥) وزعم ابو الخطاب ان العرب الموثوق بهم يقولون : انا هذا ، وهذا أنا . . . وحدثنا يونس أيضا تصديقا لقول ابي الخطاب . ان العرب تقول : هذا انت تقول كذا وكذا ، لم يرد بقوله : هذا انت ، ان يُعرّفه نفسه ، كأنه يريد ان يعلمه انه ليس غيره ، هذا محال ، ولكنه اراد ان ينبهه ، كأنه قال : الحاضر عندنا انت ، والحاضر القائل كذا وكذا انت .

واحيانا قد لا يطمئن الى قول نحوي فيلجأ اليه ، فعنده الخبر اليقين . يقول : « (٩٦) وزعم عيسى بن عمر ان ناسا من العرب يقولون : إذن أفعلُ ذاك ، في الجواب ؛ فأخبرت يونس بذلك ، فقال : لا تُبعدن ذا ، ولم يكن ليروى إلا ما سمع ، جعلوها بمنزلة هل وبل » .

٩٢ - الكتاب : ج ٢ / ٦٣ .

٩٣ - الكتاب : ج ٢ / ٤١٤ .

٩٤ - انظر : الكتاب : ج ٢ / ٢٣٦ . ج ٢ / ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٤٤٢ .

٩٥ - الكتاب : ج ٢ / ٣٥٤ - ٣٥٥ .

٩٦ - الكتاب : ج ٢ / ١٦ .

ولم تتوقف الثقة بيونس الى هذا الحد ، وانما بلغت اتساعا بحيث
 اتخذ سيبويه من قوله دعامة يؤيد بها مذهبه ؛ فقد رأى سيبويه رأيا ثم
 بدا وكأنه يشعر بعدم الطمأنينة الى ما رآه ، فدعمه بقول ليونس لتهدا به
 نفسه ، قال : « (٩٧) واما يا تميم اجمعون فانت فيه بالخيار ، إن شئت
 قلت : اجمعون . وان شئت قلت : اجمعين ؛ ولا ينتصب على اعني ، من
 رقبك أنه محال ان تقول اعني اجمعين ؛ ويدلك على ان اجمعين ينتصب
 لانه وصف لمنسوب قول يونس : المعنى في الرفع والنصب واحد » .

غير ان الطريقة التي كان سيبويه يذكر بها يونس وروايته تؤهم
 وتُضلل ؛ إذ يصعب على الباحث بسببها ان يميز بين ما هو رواية محضة
 ليونس ، وما هو رواية وراي في آن واحد . ولعل هذه الطريقة هي التي
 أوقعت النحاة المتأخرين ، وجعلتهم ينظرون الى رواية يونس على انها
 رواية محضة دون ان يلتفتوا او ينتبهوا الى انها في احيان كثيرة رواية وراي
 معاً . وقد وقع السيرافي ، أشهر شراح الكتاب ، في حيرة حين اعترضه قول
 سيبويه عن يونس في باب الندبة : « (٩٨) واما يونس فيلحق الصفة
 الالف فيقول : وازيد الظريفاه ، واجمجتى الشاميتناه » « مقال (٩٩) : ندبة
 الصفة قول يونس والكوفيين ، والذي حكاه سيبويه عن يونس لست ادري
 إلحاق علامة الندبة له من قياس يونس ، او مما حكاه عن العرب فنحتج
 له به » .

وهذا « (١٠٠) باب ما لا يعمل فيه ما قبله من الفعل الذي يتعدى الى
 المفعول ولا غيره » ، يتحدث فيه سيبويه عن المواطن التي لا يعمل فيها
 المتعدي فيما بعده ، ويطلب في التفصيل والتوضيح ، مبينا ان الاسم بعد هذا

٩٧ - الكتاب ٢ / ١٨٤ .

٩٨ - الكتاب : ٢ / ٢٢٦ .

٩٩ - حاشية الكتاب : ٢ / ٢٢٦ .

١٠٠ - الكتاب ١ / ٢٣٥ .

الفعل قد يأتي مرفوعا وقد يأتي منصوبا ؛ كل ذلك في أسلوب يُوهَم المرء أن كل ما يقوله من رفع ومن نصب هو له ، ولكنه يفاجننا في نهاية الصفحة الرابعة بقوله « والرفع قول يونس » ، فلا يدري أهو الرفع الذي تحدث عنه في الفقرة التي ذكر يونس فيها ، أم الرفع في كل ما ورد في هذا الباب ! ومن يتمعن تماما في السياق العام للباب يجد أن الرفع كله ليونس ، إذ يبدو أن كل ما مثل سيبويه به يقوم على موقف يونس ، وإن كنت لا أجزم بأن كل ما جاء به سيبويه من أمثلة هو ليونس ، ولكن يكفي أن يفهم أن مذهب الرفع الذي قام عليه معظم الباب هو مذهب يونس .

وحسب فهمي للامر وتصوري إياه ، فأنني لا أستطيع أن أفهم أن موقف يونس مما يرويه عن العرب كموقف أبي زيد مما يرويه ، أو موقف الأصمعي مثلا مما يرويه ؛ ذلك أن أبا زيد والأصمعي راويان للغة فحسب ، بينما يونس بن حبيب راوية ونحوي ، ولكنه نحوي قبل أن يكون راوية . فإذا ما روى فان ما يرويه لا يكون في معظمه إلا لبيان موقف نحوي ، أو استنباط موقف نحوي ، أو التذليل على موقف نحوي اتخذه ، وذلك على الرغم من أن سَوَّق سيبويه لرواية يونس يوهَم أنه يروي رواية دون أن يتخذ من هذه الرواية موقفا نحويا . فيونس تعد معظم حياته للدرس النحوي ، ولترسيخ القواعد النحوية في ضوء ما بين يديه من مادة لغوية ؛ فإذا قال سيبويه : « (١٠١) وحدثنا يونس أن بعض العرب يقول : يا أمّ لا تفعلني ، جعلوا هذه الهاء بمنزلة هاء طلحة إذا قالوا يا طلح أقبل . . » فكيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رايا وموقفا ؟ إنه يقيس في هذا القول ويعلل . وكيف يكون قول سيبويه عن يونس في باب النداء : « (١٠٢) ويقوي ذلك كله أن يونس زعم أنه سمع من العرب من يقول : يا فاسق الخبيث ، يدل على أن

١٠١ - الكتاب : ٢ / ٢١٢ .

١٠٢ - الكتاب : ٢ / ١٩٩ .

كل منادي مضموم هو معرفة » . كيف يكون هذا القول رواية ليونس ولا يكون رايًا يُلح من سياق الكلام ؟ . بل كيف يكون رواية ما ينسب إلى يونس في قول سيبويه : « (١ . ٣) وحدثنا بذلك يونس وعيسى جميعا أن بعض العرب الموثوق بعربيته يقول : ما مررت بأحد إلا زيدا » وقولسه : « (١ . ٤) وحدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون : مالي إلا أبوك احد » . كيف يكون ذلك رواية ليونس مع أنه يروي هنا عن العرب الموثوق بهم : فكيف يكون هذا القول رواية ولا يكون رايًا، ما دام صاحب القول نحويًا أولاً وقبل كل شيء . وما دام يروي عن عرب موثوق بهم ؛ والنحوي يتصيد ما يرويه عن الموثوق بهم تصيداً لينبئ عليه رايًا وموقفاً نحويًا .

ومع أن يونس ذو شخصية واضحة بارزة تمثل في معظم صفحات الكتاب وتتلائم مع الخليل في مواضع عدة، إما روايةً — وهي في معظمها راي كما أسلفت — وإما رايًا صريحاً صرح به سيبويه . إلا أن هذه الشخصية تكاد لا تبين بوضوح، أو أن هذه الشخصية لا تأخذ المكانة التي تستحقها في معظم كتب النحاة المتأخرين ، بينما تظهر فيها شخصية الأخص والمازني والجري وابن السراج والزجاج بشكل أوضح وبرز ، مع أن فرقاً كبيراً بين هذا وهؤلاء . لا بد أن يعترك التساؤل والاستغراب حين تجد أن يونس لا يذكر في شرح ابن عقيل مثلاً ، أو شرح المفصل ، أو حاشية الصبان ، أو شرح الأشموني، أو مغني اللبيب، أو شرح التصريح، أكثر من ثلاثين مرة في أكثرها إنصافاً له ، مع أنه ذكر أكثر من مائتي مرة — كما أسلفت — في الكتاب . ولقد اوهبت هذه الكتب الدكتور شوقي ضيف أن يونس لم يكن له دور في علم النحو ، فاستخلص نتيجة، بعد أن مرّ عليه مروراً خاطفاً، فقال : « (١ . ٥) وعلى هذا النحو وقع يونس بعيداً عن تطور

١٠٣ - الكتاب ٢ / ٢١٩ .

١٠٤ - الكتاب ٢ / ٢٢٧ .

١٠٥ - المدارس النحوية ص ٢٩ .

نظرية النحو على شاكلة ما انتهت اليه في الكتاب عند سيبويه والنحاة الذين يوضعون بحق في تطورها، وهم ابن ابي اسحق، وعيسى بن عمر، ثم الخليل بن احمد، وسيبويه . فهو يرى ان ابن ابي اسحق وعيسى بن عمر اهم من يونس واكثر تأثيراً في مجال النحو ؛ ولو عاد الدكتور شوقي ضيف الى كتاب سيبويه، الذي يعدّه الثمرة الناضجة لتطور نظرية النحو، وتتبع مساهمة يونس فيها، لكان له موقف آخر مختلف ، ولكنه اكتفى بالعودة الى تلك الكتب المتأخرة التي طمست شخصية يونس واثره في النحو في حد بعيد .

ولعلّ عدم وضوح شخصية يونس وإنصائها وإعطائها ما تستحقه من حق ضائع يعود الى سببين، الاول : ما سلفته ، وهو الطريقة التي كان سيبويه يتبعها في ذكر يونس وروايته ، إذ كانت تؤدي الى اللبس والتضليل، بحيث يصعب على الباحث ان يميز بين ما هو رواية محضّة ، وما هو رواية وراي ؛ فترك المتأخرون البحث في هذا الامر ولجأوا الى الحل الأسهل، وهو ان ينظروا الى كل ما رواه يونس على أنه رواية محضّة ، وان ينظروا الى الراي الذي بني على ما رواه يونس على انه رايلسيبويه .

والسبب الثاني : — وهو اشدّ وقعا — ان النحاة المتأخرين ورّعوا الكثير من آرائه التي صرح بها سيبويه على اولئك النحاة الذين وافقوه فيها ، فنسبوا بعضها الى سيبويه وبعضها الى البصريين تعميماً ، وبعضها الى الكوفيين .

فما نسب الى سيبويه وهو ليونس والخليل، حكم الاسم المضاف في المنادى حينما يكرر، قال سيبويه : « (١٠٦) هذا باب يكرر فيه الاسم في حال الاضافة ويكون الاول بمنزلة الآخر ، وذلك قولك : يا زيدَ زيدَ عمرو ، ويا زيدَ زيدَ أخينا ، ويا زيدَ زيدَنا . زعم الخليل، رحمه الله، ويونس ان هذا

كله سواء، وهي لغة للعرب جيدة . وهذا الرأي واضح انه ليونس والخليل
وليس لسيبويه فيه إلا التوضيح ؛ وقد نُسبَ هذا الرأي الى سيبويه كل من
ابن عقيل (١٠٧) ، والأشعري (١٠٨) ، والصبان (١٠٩) .

ومما نسب اليه ايضاً رأي يونس والخليل في الضمير بعد لولا، قال
سيبويه : « (١١٠) هذا باب ما يكون مضمراً فيه الاسم متحولاً عن حاله
اذا أظهر بعده الاسم، وذلك لولاك ، ولولاي، اذا اضمرت الاسم فيه جُزاً ،
واذا أظهرت رُفع ، ولو جاء علامة الاضمار على القياس لقلت : لولا انت،
كما قال سبحانه : (لولا انتم لكتا مؤمنين) ولكنهم جعلوه مضمراً
مجروراً ؛ والخليل على ذلك ان الياء والكاف لا تكونان علامة مضمراً
مرفوعاً . قال الشاعر يزيد بن الحكم :

وكم موطن لولاي طحت كما هوى باجرامه من قلة النيق من هوى

وهذا قول الخليل رحمه الله ويونس . والرأي في هذا الموضع
صريح الصراحة كلها انه ليونس والخليل، وقد نسبه الى سيبويه كل من
المبرد (١١٢) ، وابن عقيل (١١٣) ، وابن الشجري (١١٤) ، والرضي (١١٥) ،
ونسبه ابن هشام (١١٦) الى سيبويه والجمهور .

ومما نسب الى البصريين رأي يونس والخليل في نجة النكرة ، قال

-
- ١٠٧ - انظر : شرح ابن عقيل ٢/٢١٢ .
 - ١٠٨ - انظر : شرح الأشعري ٢/٤٥٤ .
 - ١٠٩ - انظر : حاشية الصبان ٢/١٥٤ .
 - ١١٠ - للكتاب ٢/٢٧٢ - ٢٧٤ .
 - ١١١ - سبا - آية ٢١ .
 - ١١٢ - انظر : الكامل في الأئمة ١/١٠٩٧ .
 - ١١٣ - انظر : شرح ابن عقيل : ٢/٦ .
 - ١١٤ - انظر : أمالي ابن الشجري ١/١٨٠ .
 - ١١٥ - انظر : شرح الكافية ٢/٢٠ .
 - ١١٦ - انظر : مغني اللبيب ص ٣٦١ .

سيبويه : « (١١٧) هذا باب ما يجوز أن يندب ، وذلك قولك : وأرجلاه ،
ويا رجلاه * وزعم الخليل رحمه الله ويونس انه قبيح وأنه لا يقال « . وقد
نسب ابن الأنباري (١١٨) هذا الرأي الى البصريين فطمس بذلك ذكر
يونس على الرغم من أنه واحد من البصريين كالخليل وسيبويه .

ومما نسب الى الكوفيين رأي يونس في جواز عود الخافض وعدمه ،
إذا كان المخفوض ضميراً ؛ فقد نسبه الى الكوفيين كل من ابن عقيل (١١٩)
وابن الأنباري (١٢٠) ؛ أما الأشموني فنسبه الى يونس والكوفييين ،
قال : « (١٢١)

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفض لازماً قد جعلاً

في غير الضرورة ، وعليه جمهور البصريين . . قال الناظم : (وليس)
عود الخافض (عندي لازماً) وفاتاً ليونس والأخفش والكوفييين . . . » .

ومما نسب اليهم ايضاً رأي يونس في الفصل بين المضاف والمضاف
اليه ، فقد نسبه اليهم كل من ابن الأنباري (١٢٢) والأزهري (١٢٣) ، بينما
نسبه الرضي اليه ، قال : « (١٢٤) وانكر اكثر النحاة الفصل بالمفعول وغيره
في السعة ، ولا شك أن الفصل بينهما في الضرورة بالظرف ثابت مع قلته
وقبحه ؛ والفصل بغير الظرف في الشعر اقبح منه بالظرف ، وكذا الفصل
بالظرف في غير الشعر اقبح منه في الشعر ؛ وهو عند يونس قياس » .

١١٧ - الكتاب ٢ / ٢٢٧ .

١١٨ - انظر الانصاف ١ / ٣٦٢ .

١١٩ - انظر : شرح ابن عقيل ٢ / ١٨٧ .

١٢٠ - انظر : الانصاف ٢ / ٤٦٢ .

١٢١ - شرح الأشموني ٢ / ٤٢٩ .

١٢٢ - انظر : الانصاف ٢ / ٤٢٧ .

١٢٣ - انظر : شرح التصريح ٢ / ٥٧ .

١٢٤ - شرح الكافية ١ / ٢٩٢ .

ويكاد يونس لا يُذكر الا بذكر آرائه التي خالفه سيبويه فيها ؛ من ذلك خلافهما في حكم جواب الشرط المضارع اذا دخلت همزة الاستفهام على الشرط في بدايته • قال الزجاج : « (١٢٥) هذا باب ما جاء في التنزيل من ادخال همزة الاستفهام على الشرط والجزاء ؛ وهذه ايضا مسألة فيها اختلاف بين سيبويه ويونس ، وصورتها ان تأتني اتيك بجزم الجواب عند سيبويه ، ويونس يقول : ان تأتني اتيك بالرفع ؛ ويقول هو في نية التقديم ، ويقدره : اتيك ان تأتني » .

ومن ذلك مخالفة سيبويه يونس في أصل لبيك (١٢٦) ، وفي تصغير هند لوستمي بها منكر (١٢٧) ، وفي : من زيذا واباه ، في النصب على الحكاية (١٢٨) ، والنسبة الى نحو ملهى (١٢٩) ، وابدال نون المثني همزة نحو اضرباء الغلام (١٣٠) ، والنسبة الى مائه (١٣١) ، ورد المحذوف في التحقير (١٣٢) .

وكتاب سيبويه ، حسب فهمي اياه ، يتنازعه نحاة ثلاثة ، وهم الخليل ويونس وسيبويه ، مرتبين — في رأيي — حسب مساهمتهم في هذا الكتاب ؛ ولكن سيبويه بدت شخصيته النحوية وكأنها تفوق شخصية يونس ، بل كادت تبدو متفوقة على شخصية الخليل ، وقد ناقشتها فعلا في كتب النحاة المتأخرين • ولعل مرد ذلك الى تأليف سيبويه الكتاب بعد ان ملم شتات

١٢٥ — اعراب القرآن ٣/ ٧٨٢ .

١٢٦ — انظر : خزنة الادب ٢/ ٩٣ ، شرح التصريح ٢/ ٢٨ . والكتاب ١/ ٣٥١ .

١٢٧ — انظر : الخصائص ١/ ١٥٧ .

١٢٨ — انظر : الكتاب ٢/ ٤١٣ ، وشرح الاثموني ٢/ ٦٤٣ .

١٢٩ — انظر : شرح الاثموني ٢/ ٧٢٧ .

١٣٠ — انظر : حاشية الصبان ٢/ ٢٢٥ .

١٣١ — انظر : الخصائص ٢/ ١٠٦ .

١٣٢ — انظر : المصدر نفسه ٢/ ٧١ — ٧٢ .

القواعد النحوية وبإبها ودلّل عليها . ولو قدّر ليونس — واعتذر لاستعمال
لو — ان يؤلف الكتاب، وان يتنازعه الخليل ويونس وسيبويه لتفوقست
شخصيته على شخصية سيبويه تفوقا واضحا في الكتاب وغيره، ولكانت
وضعت بجدارة في المكانة التي تستحقها . من غير ان اكون في هذا القول
متعصبا ليونس او معطيه مكانة اكثر من التي له ، كبعض الباحثين الذين
يقفون في احيان كثيرة موقف المدافع ، او المتعصب للشخصية التي يبحثون
فيها، وكان الامر يُسمّم او يتعلّق بهم . ومنطلقي في موقفى هذا هو العطاء
العلمي الثرّ الذي بين يديّ ليونس من خلال الكتاب .

ولم يكن ليونس اثر في سيبويه وكتابه بصفة خاصة ، والمدرسة
البصرية بصفة عامة فحسب ، وانما كان له اثر كبير ايضا في نشأة المدرسة
الكوفية التي اتخذت من اتجاهه مساراً لها وهاديا .

نقد ساد المدرسة البصرية زمن يونس اتجاهان في النحو :

الاتجاه الاول : اتجاه متشدد في القياس والسماع عن العرب، ويمثله
ابن ابي اسحق ، وتلميذه عيسى بن عمر ؛ فكان الاول : « (١٣٣) اشد
تجريدا للقياس » وكان يطعن على العرب ، ولا يتحرّج من ان يقول للشاعر
العربي المشهور بالفصاحة : لحنّت ؛ فقد لحن (١٣٤) الفرزدق في قوله:
« مولى مواليا » في بيته :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى موييسا

وقال له : كان يجب ان تقول : مولى موال .

وتبعه الثاني الذي كان لا يتحرّج من الطعن (١٣٥) على العرب

١٣٢ — طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٠ (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٤ — نزهة الالباء ص ٢٧ .

١٣٥ — طبقات النحويين والمفويين ص ٢٢ .

ايضا ، فكان يقول (١٣٦) : اساء النابغة في قوله :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتُنِّي ضَيْلِيَّةً مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْبَاهِهَا السُّمُّ نَاعِقٌ
والوجه الصواب عنده : السم ناقعا .

أما الاتجاه الثاني فهو اتجاه متساهل في القياس ، معظّم لما يرد عن العرب ؛ ويمثله أبو عمرو بن العلاء ، وتلميذه يونس بن حبيب . وكان الأول « (١٣٧) أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها » ، وكان (١٣٨) « أشد تسليماً للعرب » ، وكان يجوّز الأوجه المختلفة التي ترد عنهم • جاءه عيسى ابن عمر (١٣٩) « فقال له : يا أبا عمر : ما شيء بلغني أنك تجيزه ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغني أنك تجيز « ليس الطيب إلا المسك » فقال أبو عمرو : نعمت يا أبا عمرو وأولج الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع » .

وكان أبو عمرو ينشد قول ذي الرمة (١٤٠) :

وظاهرٌ لها من يابس الشُّخْتِ

فقيل له : أنشدتنا بئس ، فقال : يابس بئس واحد ، هذا شعر

ليست عليه مضايقة .

١٣٦ - طبقات فحول الشعراء ، ص ١٦ ، (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٧ - طبقات فحول الشعراء ، ص ١٤ (دار المعارف ١٩٥٢ م) .

١٣٨ - نزعة الأبناء ، ص ٢٧ .

١٣٩ - طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٨ . وانظر : الاتجاه والتناظر ج ٢ / ٧٢ .

١٤٠ - للمخضب ج ١ / ٢٩٧ .

أما يونس فسار مساره إذ كان يجله ويحترم رايه ويقول : (١٤١) «لو كان أحد ينبغي ان يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو ابن العلاء في العربية ان يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد الا وانت آخذ من قوله وتارك » . فامتضى أثره في عدم الطعن على العرب ؛ فهذا ابن أبي اسحق (١٤١) يسمع قول الفرزدق في مدحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منشور
على عمائمنا يلقي وارجلنا على زواحف تزجي مخها رير
فيقول له : (١٤٢) « أسأت انما هي « رير » ؛ وكذلك قياس النحو في هذا الموضع » . وقيل انه قال له : (١٤٣) « أسأت ، موضعها رفع ، وان رفعت أقوىت » . أما يونس فلم يكتف بتجويد قول الفرزدق وانما ذهب الى استجادته فقال : (١٤٤) « وهذا جيد » . او استحسنة فقال : « (١٤٥) والذي قال حسن جائز » .

ويسمع أبو عمرو ويونس قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن دروان لم يدع من المال الا مسحنا أو مجرف
فيقفان حائرين أمام الوجه الذي رفع الفرزدق عن أساسه «مجرف»
من غير أن يفكرا بتخطئته أو الطعن عليه ، ويحاولان أن يجدا تخريجا

١٤١ - الشعر والشعراء (المقدمة) . والبيتان في ديوان الفرزدق ج ١ / ٢١٢ .

١٤٢ - طبقات شعراء : ص ١٧ (مطبعة المدني - القاهرة) . طبقات اللغويين واللفويين ص ٣٢ .

١٤٣ - خزنة الادب ج ١ / ٢٢٨ .

١٤٤ - المصدر السابق : ٢٢٨ / ١ وقد اورد هذا الكتاب (٢٢٩ / ١) أن علي بن حمزة البصري كان يقول في كتاب التشبيهات على اغلاط الرواة : والخفي في « رير » جيد ، وتقديره على زواحف رير مخها تزجي .

١٤٥ - طبقات شعراء ١ / ١٧ (مطبعة المدني - القاهرة) .

فلم يعثرا ، فيقول أبو عمرو : (١٤٦) « لا أعرف لها وجها ، وكان يونس لا يعرف لها وجها ، قلت ليونس : لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه ، فقال : لا ، كان ينشدها على الرفع وأنشد فيها رؤية على الرفع » .

ولما جاء الكسائي الى البصرة تتلمذ على ابي عمرو بن العلاء ، وتأثر به تأثرا ملحوظا، ويقال انه بقي ملازما له (١٤٧) « نحو سبع عشرة سنة » ، وتتلذذ بعد ذلك على يونس بن حبيب تلميذ ابي عمرو ، وكان يونس يثني عليه في مجلسه بالبصرة ويشجعه ، فقد سئل (١٤٨) بحضرته عن توجيه رفع الخمر في بيت الفرزدق : (١٤٩)

غداة اُحلت لابنِ اصْرَمَ طعنةٌ
حصينِ عبيطاتِ السدائِفِ والخمرُ

ف قيل للكسائي : على اي شيء رفعت ؟ فقال : اضرمت فعلا ، كانه « وحلت لي الخمر » ، فقال يونس : ما احسن والله ما وجهته — وفي رواية اخرى (١٥٠) انه قال : اشهد ان الذين رأسوك رأسوك على حق — غير اني سمعت الفرزدق ينشده :

غداة اُحلت لابنِ اصْرَمَ ضربَةٌ
حصينِ عبيطاتِ السدائِفِ والخمرُ

جمل الفاعل مفعولا ، كما قال الحطيئة (١٥١) :

فلما خشبت الهونَ والعيرُ ممسكٌ
على رغبه ما أمسك الحبلَ حانرُه

والقصيدة على الرفع، جعل الفاعل مفعولا ، فقال الكسائي : هذا

١٤٦ — المصدر نفسه ج ١/٢١ . وانظر : الموضع ص ٩٢ والبيت : ديوان الفرزدق ج ٢/٢٦ .

١٤٧ — الاقتراح ، ص ٨٥ .

١٤٨ — مجالس العلماء : مجلس ١٠ .

١٤٩ — ديوان الفرزدق ج ١/٢٥٤ .

١٥٠ — تاريخ بغداد ج ١١/٤١٠ .

١٥١ — ديوان الحطيئة ص ١٨٢ (تحقيق نعمان طه الطبعة الاولى سنة ١٩٥٨) .

على هذا وجه .

وكان يونس يتجنب تخطئة الكسائي ، ويردّ قوله ردّاً لطيفاً جميلاً ؛
فما هو يسأل (١٥٢) في مجلسه إن ألق : ما مثاله من الفعل ؟ فيقول :
افعل، فيقول يونس له : استحييت لك يا شيخ ! والظاهر عندنا من أمر ألق
أنه فُوعِل من قولهم : الق الرجل فهو مألوق . أما ابن أبي عيينة الذي سأل
هذا السؤال فيسارع (١٥٣) بعد الإجابة الى القول : خطأ والله .

ليس هذا فحسب، وإنما كان يونس يغضب الغضب كله إذا ما أحس
أن أحداً في مجلسه حاول أن يستثيره أو يعبد الى تخطئته، ويقول : (١٥٤)
تؤذون جليسننا ، ومؤدب ولد أمير المؤمنين .

وقد توطلدت العلاقة بين يونس والكسائي ، وتعمقت بعد هذا
السلوك الذي كان له أجمل الأثر في نفس الكسائي، ولا سيما بعد المسائل
النحوية التي جرت بينهما وأقر له يونس فيها ، وكافأه على ذلك بأن صدّره
موضعه .

ولم يكن الكسائي الكوفي الوحيد الذي درس على يونس ، وإنما
درس عليه الفراء أيضاً، وكان الكوفيون — كما يبدو من رواية أبي الطيب
اللغوي — يفتخرون بأنه أخذ عن يونس، فأكثر؛ قال : (١٥٥) « وأهل الكوفة
يذّعون أنه استكثر منه ، وأهل البصرة يدفعون ذلك » وهذه الرواية إن
دلّت على شيء فأنما تدلّ على مدى المكانة التي كان يونس يمثلها في ذهن
الكوفيين وفكرهم .

١٥٢ — الخصائص ج ٢/٢٩١ .

١٥٣ — مجالس العلماء مجلس ١١٩ .

١٥٤ — المصدر نفسه مجلس ١١٤ .

١٥٥ — مراتب التحويين ص ٨٦ .

وقد كان عقل الكسائي متنبها ويتظا لكل ما كان يسمعه عن يونس من أجل أن يأخذ به ويقتني أثره ؛ فهذا يونس بن حبيب يسأل (١٥٦) والكسائي حاضر : لِمَ صارت « حتى » تنصب الافعال المستقبلية ؟ فيقول : هكذا خلقت . ويسأل (١٥٧) الكسائي فيما بعد في مجلس يونس عن تولهم : لاضر بن أيُّهم يقوم ، لم لا يقال : أيُّهم ، فيقول أيُّ ، هكذا خلقت . كل ذلك دفع الكسائي والكوفيين بعده الى أن يتبعوا الاتجاه النحوي الثاني الذي سار فيه أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب فهو الاتجاه الذي يعظم لغات العرب ويقبل بتجويزها مهما تباعدت ، من غير طعن أو تلحين ؛ أما البصريون فواصلوا السير على الاتجاه الاول ، اتجاه ابن ابي اسحق وعيسى بن عمر وهو الاتجاه الذي اتسم بالتشدد في القياس وتأويل ما يخالفه ، أو تشذيده ، أو تخطئته اذا لم يكن بديل للتخطئة .

وقد اتبع الكوفيون يونس في آراء كثيرة خالف فيها البصريين ، منها تجريزه (١٥٨) أن تلقى علامة الندبة على الصفة ، نحو قولك « وازيد الظريفاه » بينها ذهب الخليل (١٥٩) الى أن هذا خطأ .

وتبعوه في جواز (١٦٠) ادخال نون التوكيد الخفيفة على فعل الاثنين وجماعة النسوة ، نحو « افعلان » و « افعلانان » بالنون الخفيفة ؛ وايد ابن جني هذا المذهب قائلا : « وليس ذلك . . . بالمتنع في الحس ، وان كان

١٥٦ - طبقات النحويين واللغويين ص ١٧٧ .

١٥٧ - مجالس العلماء مجلس ١١٤ . وانظر : الخصائص ج ٣ / ٢٩٢ .
واوضح المسالك ج ١ / ١٠٩ .

١٥٨ - انظر : الانصاف مسألة ٥٢ ، شرح المفصل ج ٢ / ١٤ ، حاشية الصبان ج ٢ / ١٦٩ والرأي في الاصول ج ١ / ٤٣٦ منسوب الى يونس وحده .

١٥٩ - الكتاب ١ / ٢٢٦ .

١٦٠ - انظر : الانصاف مسألة ٩٤ . شرح الاثموني ج ٢ / ٥٠٢ . شرح النصريح ج ٢ / ٢٠٧ .

غيره أسوغ فيه منه من قبل أن الالف اذا أُسْبِعَ مَدَّها صار ذلك كالحركة فيها . أما البصريون فذهبوا (١٦١) الى أنه لا يجوز ادخالها في هذين الموضوعين .

وتبعوه في عدم (١٦٢) ضرورة عود الخافض .

وتبعوه في أن « اي » (١٦٣) في نحو : لأضربن أيهم أفضل ، معرب ، ولكنه يقول إنه مرفوع بالابتداء و « أفضل » خبره ، والفعل معلق عن العمل . أما هم فيقولون إنه مفعول به منصوب ، بينما يرى سيبويه أنه مبني على الضم .

وتبعوه في أن الذي (١٦٤) يقع مصدرا ، كما ورد في قوله تعالى : (١٦٥) (وخضتم كالذي خاضوا) أي خاضوا فيه ، وقوله (١٦٦) (ذلك الذي يبشر عباده) أي يبشر الله به عباده .

وتبعوه في أن « وحده » (١٦٧) منصوبة على الظرف ؛ قال سيبويه (١٦٨) وزعم يونس أن وحده بمنزلة عنده .

وبناء على كل ما مضى من أقوال وأدلة وآراء حول أثر يونس نسي الكسائي والكوفيين فأنني أستطيع القول إن تأثير يونس في هؤلاء كان

١٦١ - انظر : الإنصاف مسألة ٩٤ .

١٦٢ - انظر : شرح التصريح ج ٢/١٥١ ، شرح الأشموني ج ٢/٤٢٩ .

١٦٣ - انظر الكتاب ج ٢/٣٩٨ - ٤٠١ . والإنصاف مسألة ١٠٢ ، وجمع الهوا مع ج ١/٣١٣ .

١٦٤ - معني اللبيب ص ٧٠٩ ، وانظر نسبة الرأي الى يونس في : اعراب القرآن ج ١/٣١٥ .

١٦٥ - التوبة آية ٦٩ .

١٦٦ - الشورى آية ٢٣ .

١٦٧ - حاشية الشيخ ياسين في شرح التصريح ج ١/٢ .

١٦٨ - الكتاب ج ١/٣٧٧ .

واضحا شديد الوضوح وبارزا ، بل وبناء على كل ما مضى يخيل الي أنني
استطيع القول أن ابن حبيب النحوي كان مؤسسا بارزا من مؤسسي
المدرسة الكوفية، أو على الأقل كان مساهما مساهمة فعالة في نشأة هذه
المدرسة ؛ فهو الذي فتح لها مجال السير في الاتجاه المذكور الذي كان ينتجه
مع أستاذه ، من غير أن يتعارض هذا القول مع بصريته ؛ وبالتالي فلا
استطيع أن أعدّه ممن وضعوا النواة الأولى للمدرسة البغدادية، كما ادعى
(١٦٩) الدكتور أحمد مكي الانصاري * ولعل قرب يونس من الكوفيين
هو الذي دفع الانصاري الى ذلك . فالتقاء يونس بالكوفيين وأثره فيهم كان
قبل ان تنشأ المدرسة البغدادية وتقف على قدميها ؛ ونواة المدرسة
البغدادية لا يمكن أن تكون الا بعد وجود المدرستين البصرية والكوفية، وهي
المعروفة بأنها انبثقت (١٧٠) من تمازج المدرستين ، وأنها مدرسة تقوم على
الانتخاب والتوفيق ، والنفاذ الى بعض ما يمكن النفاذ اليه من آراء
جديدة .

د. محمود حسني محمود

١٦٩ - أبو زكريا الفراء ص ٣٦٦ .

١٧٠ - المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ص ١١٦ .

المصادر

ابن الاباري

١ - الانصاف - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ط الرابعة
١٩٦١ .

٢ - نزهة الالباء - تحقيق ابراهيم السامرائي . الطبعة الثانية . بغداد . ١٩٧٠ .

ابن جني

٢ - الخصائص - تحقيق محمد علي النجار . دار الهدى . الطبعة الثانية . بيروت .

٤ - المحاسب - تحقيق علي النجدي ناصف . القاهرة ١٢٨٦ هـ .

ابن خلكان

٥ - وفيات الاعيان - تحقيق د. احسان عباس . دار صادر - بيروت .

ابن السراج

٦ - الاصول في النحو - تحقيق د. عبد السلام الفنلي . مطبعة الاعظمي ، بغداد

١٩٧٢ م .

ابن الشجري

٧ - امالي ابن الشجري . حيدرآباد . الطبعة الاولى ١٢٤٩ هـ .

ابن عقيل

٨ - شرح ابن عقيل . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة ، ط

الثانية عشرة ١٩٦١ م .

ابن العماد

٩ - شذرات الذهب - بيروت .

ابن قتيبة

١٠ - الشعر والشعراء .

ابن التميم

١١ - الفهرست . مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

ابن دسام

١٢ - اوضح المسالك . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار احياء التراث

العربي . بيروت . الطبعة الخامسة ١٩٦٦ م .

١٣ - مخني اللبيب . تحقيق د. مازن مبارك . مراجعة الاستاذ سعيد الانفاني بيروت .

الطبعة الثانية ١٩٧٢ .

ابن يعيثي

١٤ - شرح المقصد . المطبعة القرية بمصر .

ابو الطيب اللغوي

١٥ - مراتب التحوين - تحقيق أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٩٧٤ .

ابو الفداء

١٦ - البداية والنهاية - مطبعة السمادة بمصر .

الازهري

١٧ - شرح التصريح على التوضيح . دار احياء الكتب العربية .

الاشموني

- ١٨ - شرح الاشموني - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة
بمصر . الطبعة الاولى ١٩٥٥ .

الاعشى

- ١٩ - ديوان الاعشى - تحقيق د. محمد حسين . المطبعة النموذجية .

الانصاري : د. احمد مكي الانصاري

- ٢٠ - أبو زكريا الفراء . القاهرة ١٩٦٤ .

بروكلمان

- ٢١ - تاريخ الادب العربي . دار المعارف بمصر . الطبعة الثانية .

البغدادي

- ٢٢ - خزانة الادب . تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة الحلبي .
٢٣ - تاريخ بغداد . مطبعة السعادة ١٩٣١ .

الجاحظ

- ٢٤ - الحيوان - تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة الحلبي .
٢٥ - البيان والتبيين - تحقيق فوزي عطوي . بيروت .

الجمحي

- ٢٦ - طبقات فحول الشعراء - تحقيق محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة
١٩٧٤ ، دار المعارف ١٩٥٢ م .

الحديثي . خديجة الحديثي

٢٧ — كتاب سيويه وشروحه . بغداد . الطبعة الاولى ١٩٦٧ .

حسني . د . محمود حسني

٢٨ — المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي . رسالة دكتوراة مخطوطة في مكتبة

الجامعة الاردنية قسم المخطوطات وفي مكتبة جامعة القاهرة — كلية الاداب

ضمن الرسائل الجامعية .

الخطينة

٢٩ — ديوان الخطينة — تحقيق د. نعمان طه . الطبعة الاولى ١٩٥٨ .

الحموي — ياقوت الحموي

٣٠ — معجم الادباء — مطبعة دار المأمون . الطبعة الاخيرة .

٣١ — معجم البلدان . بيروت ١٩٥٦ .

الداودي . الحافظ شمس الدين

٣٢ — طبقات المفسرين — تحقيق علي محمد عمر . مطبعة الاستقلال الكبرى . الطبعة

الاولى ١٩٧٢ م .

الرضي

٣٣ — شرح الكافية . الشركة الصحافية العثمانية . ١٢١ هـ .

الزيدي

٣٤ — طبقات النحويين والمفويين . تحقيق ابو الفضل ابراهيم . دار المعارف بمصر .

الزجاج

٣٥ — اعراب القرآن — تحقيق ابراهيم الابياري . القاهرة ١٩٦٣ م .

الزجاجي

- ٣٦ - مجالس العلماء - تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٢ م .

الزمخشري

- ٣٧ - الفصل . دار الجيل . الطبعة الثانية .

سيوييه

- ٣٨ - الكتاب - تحقيق عبد السلام هارون

ج ١ دار القلم ١٩٦٦

ج ٢ دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٨ م .

ج ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م

ج ٤ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م .

السراني

- ٣٩ - اخبار النحويين البصريين - تحقيق طه الزيني . الطبعة الاولى ١٩٥٥ م .

السيوطي

- ٤٠ - الاشباه والنظائر - تحقيق طه سعد . طبعة جديدة ١٩٧٥ م .
- ٤١ - الاقتراح في اصول النحو . حيدر آباد . الطبعة الثانية ١٣٥٩ هـ .
- ٤٢ - بغية الوعاة . تحقيق ابو الفضل ابراهيم . ط الاولى ١٩٦٥ .
- ٤٣ - همج الهوامع - تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٧٥ م .

الصبان

- ٤٤ - هاشية الصبان . دار احياء الكتب العربية .

ضيف . د. شوقي ضيف

٤٥ — المدارس النحوية . دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م .

عزام . عبد الرحمن عزام

٤٦ — بطل الأبطال . مطبعة الحلبي . الطبعة الأولى ١٩٢٨ م .

عبد . د. محمد عبد

٤٧ — الرواية والاستشهاد باللغة . القاهرة ١٩٧٢ م .

الفرزدق

٤٨ — ديوان الفرزدق . دار صادر . بيروت . ١٩٦٠ م .

القنطري

٤٩ — أنباه الرواة — تحقيق أبو الفضل إبراهيم . مطبعة دار الكتب . القاهرة ١٩٧٢ م .

المبرد

٥٠ — الكامل في الأدب — تحقيق د. زكي مبارك . مطبعة الحلبي الطبعة الأولى ١٩٢٧ م .

المرزباني

٥١ — الموشح . المطبعة السلفية . القاهرة الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ .

ناصر . علي النجدي ناصر

٥٢ — سيويوه (مام النحاة) .

ياسين

٥٣ — هائية الشيخ ياسين (ضمن شرح التصريح للزهري — دار احياء الكتاب

العربية) .